مـن الحـُـــفـــرة إلـى الحـُـــفـــرة

منْ أين يأتي يأسُنا وإحباطُنا وقرفُنا واغترابُنا؟

من الهزيمة الأخيرة واعتقالِ (أو استسلامِ) صدّام في العراق؟

مِن استسلام القذافي في ليبيا؟

من استسلام عبد ربّه والرجوب، ومن وراءهما، في جنيف؟

منْ عملِ بعض أنظمتنا على تغيير المناهج التربوية إرضاءً لأميركا؟

منْ تحوُّل بعضٍ من كُبريات عواصمنا إلى كاباريهات للدعارة المحلية والعالمية، درءًا للفقر المُدْقع؟

كلُّها أمورٌ وحقائق تَبْعث فعلاً على اليأس والإحباط والقرف والاغتراب، وتجعلنا جميعًا ـ شبابًا وكهولاً ـ نفكّر بالهجرة أو «الأصولية»... أو الاستسلام.

ولكنْ هل تساءلنا يومًا ماذا قدّمنا نحن، الأهلَ والكُتّابَ، لأولادنا وأطفالنا كي لا يصلوا إلى ما وَصَلْنا إليه نحن اليوم؟

دعوني أَحْصر هذه الافتتاحية القصيرة بأمر واحد، خَبرْتُه شخصيًا طوال الشهور الثلاثة الماضية، بعد إصداري سلسلةً من كتب الأطفال بعنوان «حكايات ولد من بيروت.» فعلى الرغم من أنّ هذه السلسلة فازت بالمرتبة الأولى عن فئة «كتب الأطفال الأكثر مبيعًا» في أضخم معرض للكتب في لبنان (اكسبو بيروت، ٢٠٠٣)، فإنّ عددًا لا بأس به من المعلّمين والمعلّمات أَعْرب عن امتعاضه منها، إمّا بسبب لغتها التي تَسْتخدم «العاميّ» و«الدخيلَ،» أو بسبب ابتعادها عن «التراث.» بل كان لافتًا للنظر ما كتبتْه الزميلة سوسن الأبطح (الشرق الأوسط، ١١/١١/٢٠٠٣) عن «مثقف لم يتمالكْ نفسَه» أمام مَشْهد «رئيسِ تحرير مجلة الآداب [يعني أنا] يقرأ قصةً لمجموعة من الأطفال الصغار، تحلّقوا حوله في معرض الكتاب العربيّ في بيروت، من أن يقول: ماذا يَفْعل هذا المجنونُ؟»

فلنَضْربْ صفحًا عن هذا المثقف الذي فُوجئ بزميلٍ له ينحطّ إلى مستوى الأطفال (لعلّه كان ينتظر أن يقوم بهذا الأمر إنسانٌ دونيّ: «امرأةٌ» مثلاً... أو جاهلٌ بأمور الإعراب والنّطق ومخارج الحروف). ولنَعُدْ إلى أولئك المعلّمين والمعلّمات الذين ساءهم أن أَسْتخدم كلمات مثل: «بايْ» و«أوكي» و«بوظة» و«بَهْدَلَ» و«وَشْوَشَ» و«كَمَشَ» و«باسَ» و«شَنْطة» و«طابة» و«زهقان» و«كُندرة» و«قُجّة»... تصوَّروا أنّهم يعلّمون أولادَنا ألاّ يَسْتخدموا هذه الكلمات، بحجّة الحفاظ على الأصالة ونقاء اللغة. فهل نَسْتغرب إنْ تَحدَّثَ شبابُنا وشاباتُنا، الذين دَرَسوا حين كانوا أطفالاً على مثل أولئك المعلّمين والمعلّمات، عن الأصالة والنقاء في الأخلاق والدين... والسياسة؟ هل تتصوَّرون أنّ مَنْ تعلّم طوال طفولته أن يبتعد عن العامية «والدخيل» سيكون قادرًا بسهولةٍ في المستقبل على الدفاع عن عروبة إنسانيةٍ متحرّرةٍ ومنفتحةٍ، أَمْ أنّ «دخيل» اللغة سيتمّ إسقاطُه على كُلِّ ما ليس صادرًا عن مسلمين عربٍ أقحاحٍ... إنْ كان لمفهوم القُحُوحة أيُّ معنًى اليوم؟

لا يتّسع المجالُ لكي أبيِّنَ أنْ لا عيب في إدخال بعض الكلمات العامية في أدبنا، ولاسيّما إذا كان موجَّهًا إلى الأطفال أو كان ذا أصول فصيحة أوْ قديمة: فـ«وشوش» منْ «وَسْوَس،» و«كَمَش» من «أَكْمَشَ» و«تَكَمَّشَ،» و«زهقانٌ» منْ «زَهَقَ،» و«بَهْدَلَ» عامية قديمة تُفيد التجريسَ. كما أنّه ليس من العيب أن نُدْرج في كتابتنا المعاصرة ما يسمُّونه «دخيلاً» (وهو، بالمناسبة، وفي سياق الخطاب السياسيّ اللبنانيّ الحديث، تعبيرٌ عنصريٌّ يَسْترجع أصداءَ خطابات «الجبهة اللبنانية» حيال الفلسطينيين والسوريين... لا حيال الإسرائيليين والأميركان، ويا للمفارقة!): فالقرآن الكريم نفسُه، والشعرُ القديم نفسُه، يَسْتخدمان مفردات فارسيةً أو ساميةً مشتركة. أم أنّه يحقّ للشاعر القديم (لا للخالق وحده) ما لا يحقّ لغيره؟ (التتمة ص ١٢٠)

سماح إدريس

تتمة الافتتاحية ص ١

من الحُفرة إلى الحُفرة

أقول لا يتّسع المجالُ لكلّ هذا، ولعلّنا نخصّص في الآداب ملفًا كاملاً عن اللغة العربية اليوم، أو عن أدب الأطفال العرب. ما أودّ أن أُركّز عليه هنا هو أنّ معظم «أدب» الأطفال عندنا يحضّ على الاغتراب، لا بسبب تحجّره اللغويّ فحسب، أو إنتاجه الفنيّ الرثّ فقط، بل أيضًا بسبب إغراقه في «رَسْكلة» (إعادة تدوير) التراث العربيّ الإسلاميّ، وكأنْ لا إمكانيةَ لتطوّر العرب إلاّ... بتقهقرهم إلى ماضٍ مُؤَمْثَل. إنّ ما سمّاه أحدُ المثقفين «الاعتراب» (بالعَيْن) هو الوجهُ الآخرُ للاغتراب (بالغين المعْجَمة)؛ فالتطلّع بشغفٍ وانبهارٍ إلى الغرب الديموقراطيّ الأشقر المتحضّر لا يختلف كثيرًا من حيث المبدأ عن التطلّع بحنينٍ وتقديسٍ إلى الماضي العربيّ الإسلاميّ التقيّ النقيّ الطاهر. كلاهما يضع حاضرَنا بين قوسيْن: كأنْ لا جمال يُمْكن أن يَطْلع من حكاياتنا اليومية، بل علينا أن نتطلّع دائمًا وأبدًا إلى ميكي ماوس وعنترة، إلى باربي وقصص الخلفاء الراشدين!

أعود إلى البداية. اليأس والإحباط والقرف والاغتراب: هذه جميعُها لم تأتنا من الأعداء «الغربيين» وحدَهم، ولا من أنظمة «الاستبداد الشرقيّ» وحدها، ولا من أحزابنا «الثورية» فحسب. بل أَتتْنا أيضًا ممّا زَرَعه آباؤنا وأمّهاتُنا فينا: من القصص السخيفة عن ماضٍ ذهبيٍّ هو نسخةٌ عن الخالقِ الذي ﴿لا يأتيه الباطلُ منْ بين يديْه ولا منْ خلفه﴾؛ ومن لغةٍ متقعِّرةٍ جامدة تَدْفع بالكثير من أطفالنا إلى أحضان الكتب الفرنسية أو الإنكليزية؛ ومن أخلاقويةٍ فجّةٍ لا يهمّها الأدبُ ولا الإمتاعُ، بل الوعظُ ثم الوعظُ ثم الوعظُ.

إنّنا، في حقيقة الأمر، نَخْلق في هذه الكتب نموذجًا لما سوف نَكْرهه حين نَكْبر، من دون أن نُدرك الصِّلةَ بين الماضي والحاضر: نَخْلق فيها المستبدَّ العادلَ، ثم نَشْتم صدّامًا؛ وكأنّ الذي يَفْصل بين هذا وذاك ـ مفهوميًا على الأقلّ ـ كبيرٌ جداً. ونكرّس فيها «الأصالةَ» اللغوية، ثم نتأفّف من بن لادن والجماعات الأصولية؛ وكأنّ تلك منفصلةٌ تمامًا ـ مفهوميًا أيضًا على الأقل ـ عن هذه. وإذا حدَثَ أنْ قرفنا من اللغة العربية ومن الأصولية ومن الأخلاقوية، واستسلمنا لإغواء الأفلام والكتب الفرنسية والإنجليزية والأميركية، رُحْنا نَعيب على القذافي استسلامَه أمام الغرب، وكأنّ الاستسلاميْن منفصلان تمامًا.

إنّنا بحاجة إلى أن نهزّ أنفسَنا هزًا. أين نذهب؟ إلى أين نأخذ أطفالَنا؟ الأرجح أنّنا، إنْ بقينا نَشْتم الآخرين ونسينا ما نقترفه نحن بحقّ أطفالنا وأنفسِنا، فسنبقى جميعًا في الحفرة التي «نَجَحَ» صدّام والقذافي وحدَهما في الخروج منها... ولكنْ إلى أين؟

سماح إدريس
بيروت